رندة حيدر*

التدجين الثقافي ـ الاجتماعي في إسرائيل اليمينية: منع تدريس رواية "الجدار الحي" نموذجاً

دوريت رابينيان. "الجدار الحي" (رواية بالعبرية).
تل أبيب: عام عوفيد، ٢٠١٤. ٣٤٤ صفحة.

في كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٥، أصدرت لجنة مختصة في وزارة التعليم الإسرائيلية، التي يتولاها الوزير نفتالي بينت زعيم حزب "البيت اليهودي"، قراراً بمنع رواية "الجدار الحي" للكاتبة الإسرائيلية دوريت رابينيان في المرحلة الثانوية في المدارس الإسرائيلية بحجة أنها تشجع "على العلاقات العاطفية بين اليهود والعرب، وتشكل خطراً على الهوية اليهودية للجيل الشاب في إسرائيل في ظل النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني." واعتبرت اللجنة أن الرواية التي تتحدث عن قصة حب بين امرأة يهودية إسرائيلية من تل أبيب وشاب فلسطيني من الخليل "تحمل إيحاءات سلبية لجيل المراهقين قد تدفعهم إلى الانجراف في علاقات عاطفية مع غير اليهود."

القرار وتبريراته نموذجان للتوجهات العنصرية التي يعمل اليمين القومي في إسرائيل على نشرها داخل المجتمع الإسرائيلي ضد الفلسطينيين. وهما يدخلان ضمن سياسة مدروسة تعمل أحزاب اليمين من خلال الائتلاف الحكومي على تنفيذها لتكريس الفصل بين اليهود والعرب داخل إسرائيل، عبر إصدار قوانين وتشريعات، واتخاذ قرارات وتنفيذ خطوات تسعى لإحداث تغيير جذري في جوهر العلاقة القائمة حالياً بين الدولة، وبين الأقلية العربية الفلسطينية.

الطرف الذي يقود هذه الحملة هو ما يمكن تسميته باليمين الإسرائيلي الجديد الذي يعطي الدفاع عن شعار الهوية اليهودية الأولوية على غيره من الشعارات، والمؤلف من تيار اليمين القومي الديني الممثل في حزب "البيت اليهودي"، ومن تيار اليمين العلماني المتطرف الذي يمثله حزب "إسرائيل بيتنا" بزعامة أفيغدور ليبرمان.

وتتميز أيديولوجيا اليمين الجديد عن أيديولوجيا اليمين التقليدي من أتباع جابوتنسكي بتقدم شعار الدفاع عن يهودية أرض إسرائيل على شعار "أرض إسرائيل الكاملة". فحزب "إسرائيل بيتنا"

* باحثة لبنانية.

مثلاً يقبل بمبدأ تبادل أراضٍ وسكان مثل تبادل منطقة المثلث ووادي عارة بمستعمرات من الضفة للحفاظ على الهوية اليهودية. وعلى الرغم من رفض حزب الليكود هذه الأفكار، فإنه بدأ يشعر بخطر صعود هذا اليمين الجديد على شعبيته، الأمر الذي جعل نتنياهو يسارع إلى تبنّي التحريض ضد العرب في إسرائيل في انتخابات الكنيست الأخيرة.

في إطار هذه الحملة التي يشنّها اليمين الجديد تبرز الدعوات إلى التضييق على الإعلام الليبرالي، والمطالبة بفرض قيود على عمل المنظمات غير الحكومية، وكمّ أفواه منظمات تُعنى بالدفاع عن حقوق الإنسان وتخوينها، والحرب الثقافية ضد الإنتاجات الأدبية التي تخرج عن رؤية اليمين القومي المعادي لكل ما هو غير يهودي.

تدجين ثقافي

يدخل قرار منع رواية دوريت رابينيان "الجدار الحي" ضمن هذا المسار التصاعدي لأيديولوجيا اليمين الجديد، وقد رأى فيه عدد من الإسرائيليين الليبراليين محاولة واضحة من جانب هذا اليمين لفرض هيمنته الثقافية على إسرائيل، والقضاء على تعددية المجتمع الإسرائيلي. ووصفت صحيفة "هآرتس" القرار بأنه "خطوة عنصرية مثيرة للشفقة على طريق التدجين الثقافي الذي يمارسه اليمين القومي للجيل الشاب في إسرائيل."

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا استفزّت هذه الرواية دعاة الدفاع عن الهوية اليهودية إلى حد منعها؟ وكيف يمكن لرواية متخيلة تروي قصة حب حقيقية بين يهودية وفلسطيني أن تشكل خطراً على الجيل الشاب من اليهود؟ وأي مستقبل للكتابة الإبداعية في ظل القيود الفكرية والتزمّت القومي والميول الشوفينية لليمين الجديد؟

حب مستحيل وموقت

"الجدار الحي" رواية صدرت في سنة ٢٠١٤ للكاتبة دوريت رابينيان، تروي قصة حب حقيقية نشأت بينها وبين الرسام الفلسطيني حسن حوراني.* تدور أحداث الرواية في مدينة نيويورك خلال شتاء سنة ٢٠٠٢، وبطلا الرواية هما: ليئات مترجمة إسرائيلية من سكان تل أبيب، وحلمي رسام فلسطيني من مواليد الخليل، تجمعهما المصادفة في أحد مقاهي نيويورك. وسرعان ما يعيش الاثنان علاقة عاطفية جارفة تستمر بضعة أشهر، قبل أن تعود ليئات إلى حياتها في تل أبيب، ويعود حلمي في زيارة لرام الله حيث يقضي غرقاً في بحر يافا.

تتألف الرواية من ثلاثة فصول بعنوان: "خريف"، و"شتاء"، و"صيف". وهي مكتوبة بلسان البطلة التي تروي الأحداث بلغة شخصية رشيقة متوثبة انفعالية وقريبة من الواقع المعيش، وتلامس أحياناً كتابة اليوميات، من خلال تداخل اللغة العبرية بالعربية وبالإنجليزية التي كانت لغة التواصل بين البطل والبطلة.

تطرح الرواية إشكالية علاقة عاطفية استطاعت أن تتخطى المحرمات والحواجز، لتثبت أنه من

* للاطلاع أكثر على سيرة الرسام حسن حوراني يمكن مراجعة مقالة: خالد حوراني، "حسن حوراني: القبطان النائم"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ١٠٧ (صيف ٢٠١٦)، ص ١٧١ ـ ١٧٥.

الممكن أن تعشق امرأة يهودية إسرائيلية رجلاً فلسطينياً على الرغم من الاختلافات كلها في النشأة وفي المواقف السياسية بينهما. فبطلة الرواية إسرائيلية عادية لم يكن لها أي علاقة مع فلسطينيين قبل تعرّفها إلى حلمي، أدّت خدمتها العسكرية في الضفة الغربية، وفي الفترة عينها التي اعتقلت القوات الإسرائيلية حلمي عندما كان في الـ ١٥ من عمره لأنه كان يرسم غرافيتي بألوان العلم الفلسطيني على أحد جدران رام الله. وقد أقسمت على التوراة بعد إنهائها خدمتها العسكرية أن تكون وفية لإسرائيل، وخلال هذه الفترة تعلمت أن التعامل مع الفلسطينيين يجب أن يكون بصفتهم أعداء، لكن هذا كله لم يمنعها من المغامرة بعلاقة عاطفية مع فلسطيني.

منذ بداية الرواية تدرك البطلة أنها ترتكب عملاً جنونياً، وتقول إنه إذا عرف أهلها بهذه العلاقة فهم على الأرجح "سيعلقونها على أعلى شجرة في تل أبيب" (ص ١١٣)، لكنها لا تستطيع أن تقاوم ما يجذبها إلى هذا الشاب الفلسطيني الحالم، وإلى هذه العلاقة الخطرة. تتذكر الدعاية الإسرائيلية التي تحذّر الفتيات الإسرائيليات من الوقوع في شباك الشبان الفلسطينيين، وتنقل حواراً سمعته ذات مرة في إذاعة دينية يصف الفتيات اليهوديات اللواتي يقعن في غرام فلسطينيين ويعتنقن الإسلام بـ "الأرواح التائهة" التي يجب إنقاذها.

تصوّر الرواية كيف كانت البطلة تعيش في ظل الإحساس الدائم بالخطيئة والكارثة المحدقة بها، وتحاول أن تبرر تلك العلاقة لنفسها بالقول إنها علاقة "حب موقت"، وتتذكر كيف كانت تطلب من حلمي الخروج من الغرفة في كل مرة كانت تريد الاتصال بعائلتها في إسرائيل. تتذكر ردة فعله حين قالت له ذات مرة: "أريدك أن تختفي من حياتي عشر دقائق فقط" (ص١٣٠).

أمّا حلمي فكان على عكسها تماماً؛ لم يشعر يوماً بالخجل أو بالذنب من هذه العلاقة، وإنما تحدث عنها أمام والدته، وعرّفها إلى شقيقه وأصدقائه، وذهب في علاقته هذه حتى النهاية.

أرض واحدة وشعبين متصلين

يتابع القارىء تطور العلاقة بين البطلين من خلال تجوالهما في شوارع نيويورك ومقاهيها وقطارات الأنفاق. نشاهدهما يتبادلان الذكريات عن طفولتيهما ودراستيهما وعائلتيهما، وكيف كان النقاش بينهما يحتدم بصورة خاصة في كل مرة كانا يتحدثان فيها عن رؤيتهما إلى حل النزاع بين شعبيهما. فبينما كانت البطلة تؤمن بحل الدولتين لشعبين، كان حلمي من دعاة الدولة الثنائية القومية، فهذه الأرض في رأيه صغيرة للغاية ولا يمكن تقسيمها إلى دولتين، يقول لها: "نحن متصلان بعضنا ببعض مثل أصابع اليد الواحدة." تعترف البطلة بأن النقاش بينها وبين حلمي كان يدفعها إلى أن تكون أكثر تمسكاً بهويتها الإسرائيلية: "لا أدري لماذا كنت أشعر، في كل مرة نتناقش، بأنني أصبح أكثر إسرائيلية من أي وقت مضى، وتصبح مواقفي تشبه مواقف أهلي، وأشعر بأن مستقبل وجود إسرائيل ملقى على كتفي" (ص ٢١٥).

تنقل البطلة نقاشاً دار بينها وبين شقيق حلمي الأكبر، وسيم، في أحد مطاعم نيويورك، حين قال لها: "هل تعرفين أن مشكلتكم، أنتم الإسرائيليين، أنكم تعيشون في كذبة دائمة، وترفضون الاعتراف بأنكم ستتحولون في المستقبل القريب إلى أقلية. وانشغالكم في إبعاد الماضي الفلسطيني عن وعيكم يجعلكم لا تنظرون إلى الأمام ولا ترون ماذا سيحدث هنا بعد مرور ٣٠ أو ٤٠ عاماً" (ص ٢٠٢).

لكن على الرغم من الاختلافات التي يخلقها واقع الاحتلال الإسرائيلي بين ليئات وحلمي، فإنهما

متشابهان إلى حد بعيد، وشتاء نيويورك جعلهما يكتشفان هويتهما المشتركة الشرق الأوسطية: "برد نيويورك جعلنا أنا وحلمي متشابهين أكثر من أي وقت مضى، وجعلنا، نحن أبناء الشرق، ندرك مدى تشابهنا" (ص١٧٢).

يظهر هذا التشابه الإسرائيلي ـ الفلسطيني في مجتمع مثل المجتمع الأميركي منذ الصفحات الأولى للكتاب، حين تخبرنا البطلة كيف حقق معها عميلان من مكتب التحقيقات الفدرالي الأميركي (FBI)، بسبب اشتباه أحد رواد المقهى الذي كانت موجودة فيه ذات يوم، فيها بعد رؤيتها تكتب بلغة غريبة من اليمين إلى اليسار، فاعتقد أنها عربية، وتبعها إلى حيث تقطن وبلّغ السلطات عنها. والحادثة هذه بحد ذاتها شديدة الدلالة والرمزية.

وفي الفترة التي قضاها البطلان معاً اعترف حلمي بأن هناك شيئين لا يتقنهما: قيادة السيارة والسباحة في البحر. فهو كثيراً ما كان يحلم بالبحر الذي كانت ليئات تقطن على مقربة منه، لكن الأقدار شاءت أن يقضي غرقاً في بحر يافا.

عندما ودعت ليئات حلمي في نيويورك قالت له مازحة: "أراكَ في العالم الآخر". لكن عندما اتصل بها وسيم شقيق حلمي كي يخبرها بموت حلمي المأسوي لم تستطع البطلة كبت مشاعرها. تصف كيف بدأت بالصراخ بين جيرانها الذين تجمعوا حولها وفهموا أنها تبكي موت شاب فلسطيني كانت تحبه.

عند الانتهاء من قراءة الرواية يتولد شعور لدى القارىء بأن الكتاب هو أقرب إلى تحية وداع توجهها الكاتبة إلى الشخص الذي أحبته، وأنه اعتراف علني بهذه العلاقة التي يمنعها المجتمع الإسرائيلي، وتعويض عن الشعور بالذنب والإحساس بالخطيئة اللذين كانا يعذبان البطلة / الكاتبة طوال الفترة الزمنية القصيرة التي استمرت فيها هذه العلاقة.

لماذا يخاف اليمين الإسرائيلي من الرواية؟

تقدم رواية رابينيان صورة للعلاقة بالفلسطينيين، هي نقيض الصورة التي يرسمها اليمين الإسرائيلي لهم كأعداء ومجرمين وقتلة، ومحاولاته البائسة لتجريدهم من صفاتهم الإنسانية. وتثبت الرواية أن الفلسطينيين على عكس الدعاية اليمينية يحبون الحياة ويقدّرونها، وهم لا يختلفون في شيء عن اليهود في تعلقهم بالأرض والبحر والسماء. فالرواية بهذا المعنى عمل مضاد لشيطنة الشخصية الفلسطينية، ودعوة إلى كسر الحواجز والتابوهات المصطنعة، وفسح المجال أمام اللقاءات الإنسانية.

تبدو شخصية الفلسطيني في "الجدار الحي" نقيض التنميط الإسرائيلي: حلمي رسام موهوب مبدع حساس وشفاف، وهو بذلك لا يمتّ بصلة إلى صورة الفلسطيني "الإرهابي" "المتخلف" الذي يعتدي على النساء، بل إننا نراه يعتني أياماً بالبطلة عندما تمرض ولا يتركها دقيقة واحدة، ويبدو أكثر رقة وحناناً من سائر الرجال الآخرين الذين عرفتهم.

في مقالة نشرتها الكاتبة في صحيفة "الغارديان" في سنة ٢٠٠٤، تقول لصديقها حسن: "عزيزي حسن، لقد دخلت حياتي وخرجت منها بسرعة إلى حد أنني أعتقد الآن أنني تخيلت ذلك. لقد بدت العلاقة بيننا مستحيلة، واختراعاً كاملاً في ضوء واقع الاحتلال من جهة، والإرهاب من جهة أُخرى. كم كان غريباً كيف كنا في كل مرة نسمع فيها عن عملية انتحارية أو عن عملية للجيش

الإسرائيلي في الضفة نسارع إلى الاتصال بأهلنا للاطمئنان. كنت تقول لي إننا شعبان في أرض واحدة: مصادر مياهنا مرتبط بعضها ببعض، وكذلك الاقتصاد، كما أن الأماكن المقدسة للديانتين موجودة في المكان عينه... لقد كنت تدرك في أعماق نفسك أن أحفادك وأحفادي سيعيشون معاً على هذه الأرض، فلماذا لا يحق لنا نحن العيش معاً منذ الآن؟"

ربما لا تكون "الجدار الحي" من أفضل الأعمال الروائية الإسرائيلية التي تحدثت عن علاقة عاطفية بين إسرائيلية وفلسطيني، لكنها بعفويتها وصراحتها وصدقها، وصدورها في هذه الفترة تحديداً، تشكل رداً أدبياً وإنسانياً على الجنون الشوفيني الذي يجتاح المجتمع الإسرائيلي، وشهادة استثنائية عن تجربة تعايش ممكنة بين شخصين خُلقا كي يكونا خصمين، لكنهما نجحا في هدم "الجدار" الذي يفصل بين حياتيهما. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فلسطين

دروس الماضي وتحديات الحاضر

واستراتيجيات المستقبل

١ـ فلسطين والفلسطينيون

تحرير

جميل هلال

١٧٧ صفحة ١٢ دولاراً